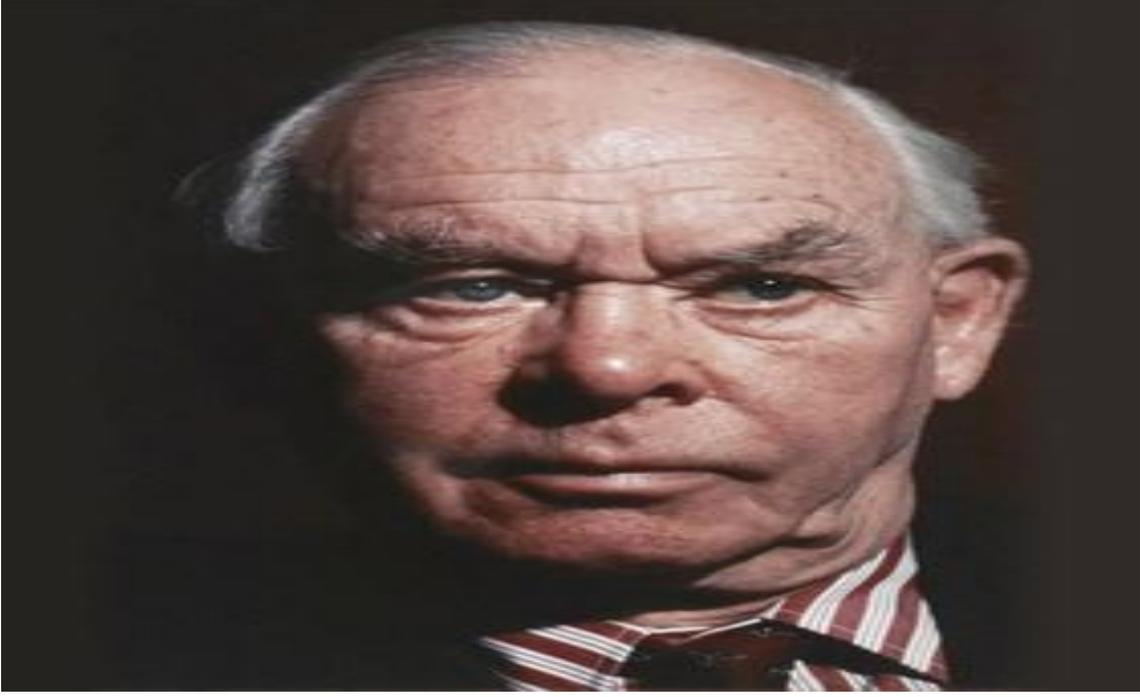


جون بولبي

(٢٦ فبراير ١٩٠٧ م - ٢ سبتمبر ١٩٩٠ م)

أ. هيام حمدى العنانى

كبير باحثين بمركز توثيق وبحوث أدب الطفل



جون بولبي John Bowlby

طبيب ومحلل نفسى بريطانى، عاش بين عامى ١٩٠٧ - ١٩٩٠. اهتم بنمو الأطفال على وجه التحديد. وقد ولد فى لندن لأسرة من الطبقة المتوسطة، وكان الرابع بين ستة أطفال، ووالده كان جراحاً لدى الأسرة المالكة. وأما أمه فكانت شديدة الانشغال عنه، فكان لا يراها إلا ساعة واحدة يومياً، وقد كان من طبيعة عصره أن الاهتمام بالأطفال من قبل الوالدين والعطف عليهم من شأنه أن يؤدى إلى إفسادهم. ولذلك نشأ على يد مربية اهتمت به طوال فترة طفولته المبكرة، إلا أنها غادرت العائلة بعد أن أكمل عامه الرابع مما أثر على نفسيته كما لو كان فقد أمه. وفى سن السابعة أرسل إلى مدرسة داخلية، كما كان حال كثير من الأطفال ممن هم بمثل وضعه الاجتماعى.

درس علم النفس فى كلية ترينيتى فى كامبريدج. وبعد التخرج عمل مع الأطفال الجانحين، ومن ثم عاد للدراسة فدرس الطب فى لندن، وتخرج وهو فى سن السادسة والعشرين، ودرس فى معهد التحليل النفسى وتخرج منه وعمره ثلاثون سنة كمحلل نفسى. وتزوج وأنجب أربعة من الأبناء وتوفى على جزيرة سكاى فى اسكتلندا. اهتم باضطرابات الأطفال الذين ينشأون فى مؤسسات الرعاية وملاجئ الأيتام والذين تظهر لديهم مشكلات وجدانية متنوعة، فقد بدا له أن مثل هؤلاء الأطفال غير قادرين على الحب لافتقادهم فرصة تكوين تعلق قوى مع صورة الأم فى

طفولتهم المبكرة، ولاحظ بولبي أعراضًا مشابهة لدى أطفال نشئوا في أسر عادية لفترة لكنهم بعد ذلك عانوا من انفصال طويل، حيث أصبحوا أطفالاً مهتزين لدرجة أنهم أصبحوا دائمي الهرب من أية روابط أسرية، مثل هذه الملاحظات أقنعت بولبي بأننا لا نستطيع فهم النمو الإنساني دون الانتباه إلى علاقة الأم بالطفل.

في سنة ١٩٥٠م طلبت منه منظمة الصحة العالمية تقريراً عن الصحة النفسية للأطفال الذين ليس لهم أسر، وهذا ساعده في الالتقاء بكثير من هؤلاء الأطفال، والالتقاء كذلك بالعلماء لعل نشأة بولبي هي التي أسهمت في توجيهه نحو هذا الاتجاه في الاهتمام بالعلاقة بين مقدم الرعاية وبين الطفل خصوصاً في المراحل المبكرة منها. واستفاد من تجربته الخاصة بتطوير نظرية تهتم بأنماط التعلق، وطرق تحسينها خصوصاً لمن يعانون مثل المعاناة التي مر بها ومنها انفصاله عن مربيته وبعده عن والدته وقسوة أسلوب المعاملة الوالدية التي تعرض لها في طفولته.

ويُعرف بولبي التعلق بأنه: "نزعة فردية داخلية لدى كل إنسان تجعله يميل لإقامة علاقة عاطفية حميمة مع الأشخاص الأكثر أهمية في حياته، تبدأ منذ لحظة الولادة وتستمر مدى الحياة". وهذا التعريف لبولبي يبين لنا أن هناك نزعة لدى كل إنسان تهدف للارتباط بالناس الأكثر أهمية في حياته، وهذه النزعة بحسب تعريف بولبي فطرية، فهي تبدأ منذ الولادة وهي نزعة مستمرة حتى الموت. وأيضاً ترتبط بمفهوم التعلق مفهوم آخر وهو قلق الانفصال والذي يعرف بأنه: القلق من خسارة أو ابتعاد الشخص الذي نحب والذي هو مصدر التعلق. فهو أثر مرتبط بالتعلق وعلامة من علامات أو دلالات نمط التعلق.

ويرى بولبي أننا نستطيع فهم السلوك الإنساني فقط إذا وضعنا في اعتبارنا البيئة التي يتكيف معها والتي تطور فيها. ويشعر الإنسان بالحاجة للحماية؛ ولذلك يلجأ للمجموعات، والتي تتعاون فيما بينها لصد المعتدين وحماية الصغار والمرضى، والأطفال الصغار دوماً بحاجة لآلية تحفظ لهم أن يكونوا قريبين من آبائهم، ومن هنا تطور لديهم سلوك التعلق والإيماءات والإشارات التي تُحسن وتحقق الاقتراب ممن يقومون بالرعاية.

أحد الإشارات الواضحة صرخة الطفل عندما يشعر بالألم أو الخوف، فهي عبارة عن نداء استغاثة، تدفع الوالدين أو أحدهما إلى الطفل للتحقق من المشكلة. كما أن ابتسامة الطفل إشارة أخرى لسلوك التعلق، فالطفل عندما يبتسم لوالديه يشعرون بالحب والاستمتاع بالقرب، وقد واصل بولبي البحث والتنظير في تأثير الإيداع في المؤسسات والحرمان الوالدي على الأطفال، وقد أشار إلى أهمية الروابط الوجدانية أو التعلق في حياة الفرد، حيث إن هذه الروابط تحمي حياة الطفل من خلال حب أمه ورعايتها المستمرة له، فهي وظيفة بقائية أساسية في حياة الطفل. كما أنها من أهم أسس الصحة النفسية للطفل والأم، وكذلك فهي المؤثر الرئيس في الأداء الوظيفي للشخصية، وهي تضع أسس الاتجاهات نحو الحياة والناس والعلاقات والمستقبل، وتأثر التعلق الوالدي يرتبط بطبيعة العلاقة مع الآباء، وفي هذا الإطار يشير بولبي إلى وجود أربعة أنواع من التعلق هي:

1. التعلق الآمن بالأب فقط.
2. التعلق الآمن بالأم فقط.
3. التعلق الآمن بالوالدين معاً.

4. التعلق غير الآمن بالأب أو الأم أو الوالدين معًا. فالفكرة الأساسية لدى بولبي أن هناك طفلاً وهناك قائم بالرعاية لهذا الطفل (والطبيعي أن يكون الوالدين) وهناك صيغ أو أنواع لهذا التعلق، وهذه الصيغ يمكن أن تتعدد وتتنوع لكنها في مجملها النهائي تعود إلى تعلق آمن أو غير آمن. فالآمن يحقق للطفل السعادة ويساعده في نموه من جميع النواحي، أو تعلق غير آمن يكون حجر عثرة في حياة الطفل. مراحل تطور التعلق وطبيعة التعلق لدى الأطفال مع الأم أو مقدم الرعاية يمكن أن تُحدد من خلال استجابات الأم لأطفالها وطريقتها في الاهتمام والحماية والمساعدة، وقد قسمت عالمة النفس ماري إينسورت وهي إحدى طالبات بولبي بعد أن أجرت تجربة من ٩ خطوات تدعى تجربة الموقف الغريب لتحديد نوعية تعلق أنماط سلوك التعلق إلى أربعة أنواع :

١. التعلق الآمن :

وهم أقل قلقًا اجتماعيًا، وأكثر ثقة بالنفس، يملكون طلاقة حوارية ومهارات في التفاعل والقبول الاجتماعي، وأكثر استقلالية وسيطرة على موقف التفاعل.

٢. التعلق المتجنب :

ويُظهر الطفل في هذا النمط إهمال الأم وتجنبها عند انفصالها عنه، وعدم السرور عند عودتها.

٣. التعلق المتحير :

ويظهر ذلك في أشكال من السلوك المتناقض تجاه الأم، فيتأرجح السلوك ما بين الرغبة الشديدة للالتصاق بالأم. ثم الابتعاد عنها دون مبالاة، والاستقلال ثم التبعية سواء مع الأم أو الغرباء، وعدم الرغبة في التعبير والحوار، وقلة الحركة، والإحساس بالراحة والاستقلال في الأماكن الغريبة ثم القلق لعدم وجود الأم.

٤. التعلق المقاوم :

ويتمثل هذا النمط في انشغال الطفل بالأم سواء في وجودها أو بعد مغادرتها، وعدم الرغبة في الاستكشاف وإظهار الحزن والهلع عند مغادرة الأم، وتجنب الآخرين في وجود الأم أو في عدم وجودها، ثم الالتصاق القوي بالأم عند عودتها.

الجدير بالذكر في هذه الأنماط التي توصل إليها بولبي وإينسورت وغيرهما من زملائهما كلها، تمت بعد دراسات طولية ومستعرضة، وعبر تجارب كثيرة على الصغار سواء من البشر أو حتى القرد. وهذا يعزز قوة هذه النظرية ومبادئها التي لم تكن نتيجة افتراضات نظرية من عند أشخاص أو علماء بعيدين عن الميدان الحقيقي، أو نتاج دراسات محدودة على عدد بسيط من الأطفال.

الانفصال :

كان بولبي من أوائل من حذروا من الآثار الضارة المحتملة للانفصال بين الأبناء والآباء، وقد عمل حول ذلك مع روبرتسون، وتوصلا إلى أهمية مرافقة الأبوين للطفل المريض في المستشفيات لأن انفصاله عنهم يسبب معاناة شديدة للطفل. واهتم بولبي بمسائل التبنى وتغيير محل تربية الطفل، وعدم تغييره إلا للضرورة، مع الاهتمام بمرحلة التعلق، وذلك لأن الانفصال حينها

يكون أشد إيلامًا. فالانفصال قلق يشعر به الطفل عند فقد القائم بالرعاية يجعله فى حالة من الإحباط والتوتر، ولا بد من المهتمين به مراعاتها لآثارها التى قد تكون سلبية على حياته.

مراحل قلق الانفصال :

يرى فوريبيز أن قلق الانفصال لدى الأطفال يمر بمراحل مهمة وهى :

١. المرحلة الأولى (الاحتجاج والبحث) :

وفىها يحاول الطفل جاهدًا أن يحتج ويبكى على انفصاله عن الأب أو الأم، مع إصراره على البحث عنهم أو حتى اللحاق بهم إذا أمكن.

٢. مرحلة اليأس :

وهنا يدرك الطفل أن الأب أو الأم غير موجودين، وأنه لن يتمكن من اللحاق بهم، حيث تظهر ملامح اليأس والإحباط عليه، ويرفض فيها الاستجابة للآخرين من حوله.

٣. مرحلة الانفصال :

وفىها يبدأ الطفل بفصل جميع المشاعر والروابط العاطفية والانفعالية بالشخص الذى ابتعد عنه، كما أنه يقلل من تفاعلاته الاجتماعية مع الآخرين، ويقلل من اهتمامه بهم خوفًا من أن يبتعدوا عنه هم أيضًا.

وأكثر الأطفال معاناة من قلق الانفصال هم الأطفال من الشهر السادس وحتى سن ثلاث سنوات. ومن المتوقع أن يقل قلق الانفصال كلما كبر الطفل، لأنه يصبح أكثر اعتمادية على ذاته. ولقدرته المعرفية على التذكر بأن مقدم الرعاية إذا ذهب سيعود، مما يخفف من شعوره بالقلق. وتشير بعض الدراسات إلى أن الأطفال بعد سن الخامسة، وكذلك المراهقين قد يعانون من قلق الانفصال، وأن من يتعرض للانفصال تظهر عليهم علاماته كاليأس والإحباط والخوف، وقد يعانون من مشكلات سلوكية كالتبول اللاإرادى والكوابيس.

تطبيقات نظرية التعلق التربوية

أوضح بولبى أن هناك تخوفًا من البعض من أن هذا الانتباه الزائد الذى ينادى به قد يؤدى إلى الإفساد، فكان رد بولبى مثل رد جيزيل، حيث إن التطور يزود الأطفال بالإشارات والإيماءات التى تحسن النمو الصحيح لديهم، وأنه من الحكمة أن نستجيب لهم، فعلى الآباء أن يلبوا صرخات أطفالهم ويردوا على ابتساماتهم ويستجيبوا لمناعاتهم وغيرها. فالأطفال مجهزون بيولوجيًا لكى يرشدونا لما يحتاجون، وعلاقتنا معهم سوف تتطور بكل سعادة إذا تتبعنا مبادراتهم. ولقد دعمت أبحاث إينزورث آراء بولبى، فالآباء الذين استجابوا بحساسية وكفاءة لإشارات أطفالهم، تكون لدى أبنائهم فى عمر السنة الأولى تعلق آمن، وكان بكائهم أقل واستقلاليتهم أكثر. مثل هؤلاء الأطفال يعرفون أين يجدون الآباء، فهم لا ينزعجون كثيرًا حول وجود الأم، ويستخدمونها كقاعدة آمنة ينطلقون منها للاستكشاف، ومع ذلك فهم يعيدون النظر سريعًا للخلف وقد يعودون إليها من وقت لآخر، ثم يستأنفون بسرعة مغامراتهم. ويرى بولبى أن على الأب أن يكون متواجدًا عن قرب أو ملتصقًا بالطفل بكل حب. وأن ذلك يساعد فى إتاحة الفرص للأطفال

لكي يواصلوا اهتماماتهم الخاصة، بتزويد الأطفال بقاعدة آمنة ينطلقوا منها للاستكشاف. وكلما كبر الأطفال فإنهم يقضون باختيارهم فترات متزايدة بعيدين عن يقومون برعايتهم. فطفل الخامسة يمكنه الذهاب للمدرسة، كما أن المراهقين يتمكنون من قضاء فترات أطول تصل لأيام وحتى لشهور بعيداً عن أسرهم، ويكونون قادرين على مواجهة الحياة بمزيد من الثقة عندما يكون لديهم قاعدة آمنة من الأهل والأصدقاء.

ولعل من أهم التطبيقات التربوية أيضاً لهذه النظرية برأى الباحث أن هذه النظرية تفسر كثيراً من سلوكيات الأطفال في المراحل المبكرة من الدراسة، فكثير من مدارسنا الابتدائية تعاني خصوصاً في الشهر الأول من الدراسة كثيراً في التعامل مع الأطفال في الصف الأول الابتدائي الذي نمط تعلقهم غير آمن حيث يكونون محل إشغال للمعلمين وأولياء أمورهم، ويعاني الجميع حتى يستقر هؤلاء الأطفال وينسجموا مع البيئة المدرسية.

في بداية ظهور النظرية، نقد علماء النفس الأكاديمي نظرية بولبي ونبذته مجتمع التحليل النفسي لانحرافه عما تؤمن به مدرسة التحليل النفسي. وعلى الرغم من ذلك، أصبحت نظرية التعلق المنهج السائد الذي يشرح التطور الاجتماعي المبكر، حيث إنه أعطى الفرصة لتدفق هائل في البحث التجريبي في تكوين العلاقات الحميمة عند الأطفال. وقد وُجّهت انتقادات للنظرية بعد ذلك والتي تتعلق بحساسية وتعقيد العلاقات الاجتماعية والقصور الذي تسببه التصنيفات غير المترابطة من أنماط التعلق. وقد عُدلت نظرية التعلق بشكل كبير كنتيجة للبحث التحليلي، لكن أفكارها أصبحت مقبولة عمومًا. وشكلت نظرية التعلق قواعد لعلاجات جديدة وأعدت تكوين ما كان موجوداً من قبل، واستُخدمت أفكارها في صياغة السياسات الاجتماعية ورعاية الطفل لدعم علاقات التعلق المبكرة لدى الأطفال.

مؤلفاته :

ألف جون بولبي العديد من الكتب منها على سبيل المثال :

1- Child care and the growth of love, 1953.

2- A secure base..., 1988.

3- Personality and mental illness, 1940.

4- The making & breaking affectional bonds, 1979.

وفاته :

تُوفى جون بولبي الطبيب والمحلل النفسي في جزيرة سكاى في اسكتلندا في ٢ سبتمبر من عام ١٩٩٠، عن عمر يناهز الثالثة والثمانين.